مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومِن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمـدًا عبده ورسوله.

لا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، المحيط بكل شيء، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

إن الإيمان هو اليقين الذي تنشرح له صدور المؤمنين، وتقر به أعينهم، ويستريح إليه تفكيرهم، ولقد ثبت أنه من المستحيل أن تُخلق نواة من تلقاء نفسها.

إن عامل الصدفة لا يجوز في هذا المجال علميًّا، ومعنى هذا: أن القول بحدوث العالم وحده، ومِن تلقاء نفسه هراء، وأنه لابد من وجود إله عالم مقتدر حكيم جبار.

إن في كل شيء آية تدل على أنه الواحد، آية تنفي الريب وتورث اليقين، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ....[الذاريات:٢٠، ٢١].

إن القول بأن الإنسان قادر أن يخلق شيئًا لا يمكن تصديقه، فإذا ما فكر الإنسان في خلقه، ودقة حواسه، وتأمل هذه الآيات والأعضاء التي خلقها الخلاق العظيم، وبدأها المدبر الحكيم، فهل يستطيع الإنسان بما أُوتِي من علم ومال وسلطان أن يستعيض أحدها لو سلبت، أو أن يردها بعد تلفها، بل حتى يعرف سر تركيبها؟

على أن العلاقة بين القرآن والعلم ليست بحاجة لكثير تأكيد، ولكن ما نود إبرازه هنا: أن القرآن الكريم يتحدث عن الله تعالى العلي الكبير؛ فيشعرك بأن قدرته وراء النواة التي تتكون لتصبح نخلة، وهي في الوقت نفسه وراء الفجر الذي يشق الظلمة ليكون نورًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ .....[الأنعام: ٩٥، ٩٦].

وعلى هذا الأساس ينهض الإيمان الحق، وعلى تلك المعرفة تحيا العلاقة باللَّه؛ لأنها إحساس بوجوده، وملاحظة لصفاته، ومتابعة لآثاره هنا وهناك.

والإيمان الذي دعا إليه القرآن الكريم هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير، وما أنبت في جوانبه من أحياء.

وتستطيع أن ترى قدرة الله في كل شيء، في قدرته و إبداعه، في أرضه وسمائه، في كل ظواهر الحياة، وفي كل ذلك دلائل الوحدانية والعظمة والقدرة، وهي شرائع صامدة، يُعبِّر عنها عادة بالمعادلات والقوانين، وهذا ينبئنا بالخبر اليقين، وهو أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الحق، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ....[طه:٥٠].

والذي يقرأ القرآن الكريم عن علم لا يستوي مع مَن يقرأه بغير علم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .....[الزمر: ٢٩].

وهؤلاء الذين يفكرون ويتدبرون هم الذين يستحقون وصف الله تعالى بأنهم أولو الألباب؛ لأنهم يفتحون أبصارهم وبصائرهم للنظر والتدبر والتأمل والاستدلال،

فيعرفون ربهم ويذكرونه ذكرًا دائبًا، وهم أهل الاعتبار فيما أبدع الله، وفيما دبر من عجائب تدل على قدرته وحكمته وعظمته، ويعجز العقل عن إدراكها، وينزهونه عن كل نقص، ويعبدونه، ويطيعونه، ويرجون ثوابه، ويخافون عقابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .....[آل عمران: ١٩٠].

فنظرة واحدة إلى الكون تملأ النفس انبهارًا بما فيه من روعة ودقة وقوانين ثابتة وحكيمة.

يتجلى هذا في كل شيء؛ من قطرة الماء إلى المحيط، من ذرة الرمل إلى الجبل، ومن النملة إلى أضخم حيوان، ومن ورقة الشجرة إلى الغابة، ومن الجنين في بطن أمه إلى الرجل.

والذين يسترشدون بعقولهم يجدون في خلق الله كثيرًا من الدلائل على قدرته، ففي الأرض بقاع متجاورة لكنها مختلفة الطبيعة، فهذه خصبة وتلك مجدبة، وهذه مبسوطة، وتلك تلال، أو جبال، أو هضاب، أو وهاد، وهذه رملية، وتلك حجرية أو طينية، وفي جوف هذه معادن، وفي جوف تلك نفط أو ماء أو غاز... وهكذا.

يسترشدون كذلك بما في الأرض من حدائق وأعناب وزروع شتى، ولكن نباتها يختلف جنسًا ونوعًا وشكلاً وطعمًا وحجمًا ورائحة، مع أنها كلها تنبت في مكان واحد، وتشرب من ماء واحد، وتتنفس هواءً واحدًا.

كما يرون في الأنعام عظة وبرهانًا على قدرة الخالق في خلقه سبحانه لغدد الماشية لإفراز اللبن.

كما يجدون في خلق النحل دليلاً على قدرته للذين يتفكرون؛ حيث ألهم الله النحل باتخاذ بيتها، وصنع خلاياها، وامتصاص رحيقها، وإفراز العسل الذي فيه شفاء للناس، ولله سبحانه قدرة تتجلى كذلك لأولي الألباب في خلق الرجال والنساء من جنس واحد؛ ليسكن كل منهما للآخر، وتربطهما ألفة ومودة.

وتتجلى كذلك في اختلاف صور الناس وأشكالهم وألوانهم وأصواتهم ولغاتهم، وما يستكنه ذلك من حِكمٍ.

وهكذا يصرف الله سبحانه الآيات البينات الدالة على وحدانيته وقدرته، لعل الناس يتأملون ويتفكرون ويتفهمون، وهذا ما نجده في آيات الذكر الحكيم، والتي تدعو إلى ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾....[الأنعام: ٦٣، ٦٤]؟

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ....[الحج:٦٣]؟

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ....[الأحقاف:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ .....[الطـور: ٣٥، ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ....[الفرقان:٤٦].

هكذا تتأكد الدعوة للتدبر من خلال الصيغ الاستفهامية السابقة، كما يتفاضل الناس بتفكيرهم الذي يصل بينهم وبين الله، والذي يقوي صلتهم وإيمانهم به سبحانه: ﴿....قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾....[الزمر:٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ....[الأنعام:٥٠].

ويتأكد لنا مما تقدم أن في استعراض عجائب الكون والطبيعة ما يدعو كل عاقل إلى الإيمان بالله، بل لو نظر إلى نفسه، وما فيها من دقة تركيب منذ أن كان نطفة، وما صحب ذلك من تطورات مختلفة، وتأمل سيطرة المخ على سائر أعضاء الجسم، وتأمل حركة القلب ونبضه في دقةٍ ودونِ توقف، وتأمل عدسة العين وعملها، وتأمل المعدة وعملها الكيميائي، وتأمل في حدوث ذلك كله ستجد كل ذلك سبيلاً صحيحًا للإيمان برب الكون، والنطق بوحدانيته سبحانه.

ومن هنا فإن التفكير في عظمة الخالق وعجائب المخلوقات سبيل إلى المعرفة الحقة، وطريق للعمل الصالح الذي يصنع الحضارات، ويبني الأمم الراقية في أخلاقها ومبادئها وقيمها.

هذه الظواهر الكونية وغيرها لا يمكن أن تكون مصادفات، بل لابد من مدبر حكيم، وخالق مبدع، يضع الأشياء في مواضعها وقدرها، فجاءت على هذا النحو البديع، والنظام المحكم.

وما أجمل تعبير القرآن الكريم على عظمة الخلق، وحسن التنسيق فيه، وتكاملية الكون في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾....[الملك:٣، ٤].

والظواهر التي تدل على ذلك أكثر من أن تحصى، أو يحيط بها عالم، وفي الكون آيات باهرات، وبراهين ساطعات على إبداعه المحكم، وصنعه المتقن، وآثاره المعجزات.

ولا يمكن لعاقل أن يرد هذه المعجزات إلى الطبيعة أو الصدفة؛ لأن ذلك لا يقول به إلا من سُد على عقله وقلبه منافذ الهداية، ونور الحق، وراح يتخبط في الحياة تخبط المهووس المجنون، ولا يدري ماذا يفعل، ولا يدري ماذا يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ .....[الأعراف: ١٧٩].

وهذا الكتاب الذي بين يديك -أخي القارئ- دعوة إلى التأمل والتذكر والاعتبار «فهل من مدكر؟»، ما بين التفكر في آيات يستشعرها المسلم في الكون والحياة، وما بين إشارات قرآنية إلى جوانب إعجازية، وما بين ربط الآيات الكونية بما يعضدها من الآيات القرآنية التي يزداد بها المسلم إيمانًا وثباتًا وقوة ويقينًا، أو استقرار جوانب إعجازية في القرآن الكريم حول موضوعات جديدة تحدث عنها القرآن باعتبارها ظواهر دالة على عظمة مالك الملك ذي الجلال والإكرام، وفي كل جانب إعجازي نقدم من الصور الإيضاحية ما يجعل الإعجاز راسخًا في قلب القاريء وبصيرته.

ولعل بعض الناس تشده هذه الصور شدًّا إلى هذا الإعجاز الذي قد لا يتوصل الإنسان إلى أسراره عيانًا إلا عندما يشاهد ما يدل عليها من بعض الصور والمرئيات، فهذا الكتاب تصفح في أروقة الكون الفسيح الذي لا نعلم عنه إلا القليل؛ كي يدرك الإنسان أنه قاصر في علمه وإدراكه أمام علم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ....[البقرة:٢٥٥].

والكتاب الذي بين يديك ذكرى وتذكرة، وانطلاق في الآيات البينات التي تجدد إيماننا، وتقوي علاقتنا بربنا سبحانه وتعالى، وهي أشد أهمية لمن يبحثون عن دلائل الإيمان، هذه الدلائل يمكن أن تجد بعضًا منها في صفحات هذا الكتاب.

ويقع هذا الكتاب في خمسة مباحث أساسية، تسعى جميعها إلى تبسيط معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .....[القمر: ١٧].

ولذا بدأنا **المبحث الأول** في التعايش مع القرآن العظيم، وهو استعراض لنماذج قرآنية في المعايشة مع القرآن الكريم والتفاعل معه، مستشهدين بما كان يفعله الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وعندما نتعايش مع القرآن الكريم، نجد أن حواسنا مقبلة إليه منسجمة معه، وهذا ماعرض له **المبحث الثاني** من خلال الجلود الذاكرة.

وأما **المبحث الثالث** فقد ربط بين التذكر والخشية.

وأما **المبحث الرابع** فقد تناول معية الأخوة في الله تعالى، وهي المعية الصادقة التي يجمعنا عليها وبها القرآن العظيم.

وأما **المبحث الخامس** الأخير فقد استعرض نماذج للذاكرين في الكون، وآيات ناطقات على تفاعل الجمادات والكائنات مع ذِكرِ الله عز وجل.

وختامًا، فالرجاء من الله تعالى أن ينفع بجهدنا المتواضع، وأن يكون التوفيق حظه ونصيبه، وأن يجعلنا تعالى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم التوبة النصوح، وصلاح الجسد والقلب والروح، ونعوذ به تعالى من الغرور والزور، والكذب والفجور، وفتنة القبور، وانطماث النور، يا عزيز يا غفور.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلاة ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يا رب العالمين في كل لمحة ونفس، عدد ما وسعه علمك العظيم الأزلي القديم.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ....[البقرة:٢٨٦].

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ....[إبراهيم: ٤٠].

ولله الحمد من قبل ومن بعد على نِعَمِه الطيبات، وعلى عونه على الصالحات، وبفضله تنال أعلى الدرجات.

الراجي عفو ربه القدير

المقصر الفقير إلى رحمة مولاه

أحمد عبده عوض

obeikandl.com